عقبة بن نافع

إعداد

صلاح عبد الحميد

مؤسسة دار الفرسان
للنشر والتوزيع
٥١ ش إبراهيم خليل – المطرية

اسم الكتاب : فرسان الإسلام) عقبة بن
نافع(المؤلـــف : صلاح محمد عبد الحميد
الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف: ـ
رقم الإيداع : ٨٩٢١
طبعة ثانية : ٢٠١٥

فهرسة أثناء النشر

صلاح محمد عبد الحميد
فرسان الإسلام / صلاح محمد عبد الحميد ـ القاهرة ـ ط١
مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع
٦٤ ص ؛ ٢٤ سم
تدمك :ـ ٩٧٧-٦١٦٩-٢٨-٧
١ ـ الإسلام ـ تراجم
أ. العنوان ٩٢٢,١

آية قرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا)

صدق الله العظيم

طه 114

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

صحابة رسول الله هم من صحبوا رسول الله محمد بن عبد الله وآمنوا بدعوته. والصحبة في اللغة هي الملازمة والمرافقة والمعاشرة. رافق الصحابة رسول الله محمد بن عبد الله في أغلب فترات حياته بعد الدعوة، وساعدوه على إيصال رسالة الإسلام ودافعوا عنه في مرات عدة. وبعد وفاة رسول الله محمد بن عبد الله قام الصحابة بتولي الخلافة في الفترة التي عرفت بعهد الخلفاء الراشدين ، وتفرق الصحابة في الأمصار لنشر تعاليم الإسلام والجهاد وفتح المدن والدول. وقاد الصحابة العديد من المعارك الإسلامية في بلاد الشام وفارس ومصر وخراسان والهند وبلاد ما وراء النهر.

عن أبو هريرة_رضي الله عنه_ عنه قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) " وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة ، وضيق الحال بخلاف غيرهم ، ولأن إنفاقهم كان في نصرته -صلى الله عليه وسلم- ، وحمايته ، وذلك معدوم بعده ، وكذا جهادهم وسائر طاعتهم ، وقد قال تعالى (لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ

وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً)(الحديد:10) وهذا كله مع ما كان فيهم في أنفسهم من الشفقة ، والتودد ، والخشوع ، والتواضع ، والإيثار ، والجهاد في الله حق جهاده ، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل ، ولا ينال درجتها بشيء ، والفضائل لا تؤخذ بقياس ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"

وقال البيضـــاوي _رحمه الله تعالى_ : " معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهبا من الفضـل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصـيفه ، وسـبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص ، وصدق النية) " مع ما كانوا من القلة ، وكثرة الحاجة والضرورة " وقيل " السبب فيه أن تلك النفقة أثمرت في فتح الإسلام ، وإعلاء كلمة الله ما لا يثمر غيرها ، وكذلك الجهاد بالنفوس لا يصـل المتأخرون فيه إلى فضـل المتقدمين لقلة عدد المتقدمين ، وقلة أنصـــارهم فكان جهادهم أفضـــل ، ولأن بذل النفس مع النصـــرة ، ورجاء الحياة ليس كبذلها مع عدمها . "

ومما جاء في فضـلهم –رضـي الله عنهم– حديث عبد الله بن مسـعود_رضـي الله عنه_ عن النبي –صـــلى الله عليه وســلم– قال :(خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)

"وإنما صار أول هذه الأمة خير القرون؛ لأنهم آمنوا به حين كفر الناس ، وصدقوه حين كذبه

الناس ، وعزروه ، ونصـــروه ، وآووه ، ووواســـوه بأموالهم وأنفســـهم ، وقاتلوا غيرهم على كفرهم حتى أدخلوهم في الإسلام"

ومما جاء في فضلهم ما رواه أبو بردة _رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – (النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون) " وهو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن وظهور البدع وفشو الفجور في أقطار الأرض"

وها هو أمير المؤمنين علي_ رضي الله عنه_ يصف حال الصحابة فعن أبي راكة قال : صـليت خلف علي صـلاة الفجر فلما سـلم انفلت عن يمينه ثم مكث كأن عليه الكآبة حتى إذا كانت الشـمس على حائط المسـجد قيد رمح قال : لقد رأيت أصـحاب محمد –صـلى الله عليه وسلم–

فما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون ضمرا شعثا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ويراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح فهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم.

فالصحابة هم الذين عرفوا من أحوال رسول الله محمد بن عبد الله ما جعلهم يهرعون إليه ويضعون مقاليدهم بين يديه ينغمسون في فيضه الذي بهر منهم الأبصار وأزال عنهم الأكدار، وصيرهم أهلاً لمجالسته ومحادثته ومرافقته ومخالطته، حتى آثروه على أنفسهم وأموالهم وأزواجهم وأولادهم، وبلغ من محبتهم له وإيثارهم الموت في سبيل دعوته للإسلام أن هان عليهم اقتحام المنية كراهة أن يجدوه في موقف مؤذ أوكربة يغض من قدره

وهناك عدة ثوابت عند أهل السنة عن الصحابة، منها:

- الصحابة كلهم عدول، لا يجوز تجريحهم ولا تعديل البعض منهم دون البعض.

- الصـــحابة لم يذكرهم الله في القرآن إلا وأثنى عليهم وأجزل الأجر والمثوبة لهم، ولم يفرق بين فرد منهم وفرد ولا بين طائفة وطائفة. وفيهم يقول النبي محمد) :خيرالقرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)

ولعل من القائد الحوارى الزبير بن العوام من حوارى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم له صــفاته الخاصـــة به وكذلك له حياته الخاصـــة التى ســوف نعرض لها فى هذا الكتاب لإلقاء الضوء على شخصية الصحابى الجليل الزبير بن العوام فى هذه السطور .

المؤلف

من هو عقبة بن نافع ؟

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لَقيط بن عامر بن أمية بن الظَّرِب بن الحارث بن عامر بن فِهْرٍ الأموي القرشي الفهري .ولد سنة 1 ق . هـ و توفي سنة 63 هـ.

كان أبوه مع هبار بن الأسود حينما نخس دابة زينب بنت رسول الله لما توجهت إلى المدينة، ورُوِي أنهما اللذان عَنَى النبيُّ . صلى الله عليه وسلم . بقوله: إنْ لقيتموهما فحرقوهما. مات أبوه قبيل الفتح.

يقال: إن عمرو بن العاص كان خال عقبة بن نافع، وفي قول آخر: إن عقبة بن نافع أخو عمرو بن العاص لأمه.

وجهه عمرو إلى إفريقية سنة 42 هـ واليا.

و ولاه معاوية إفريقية سنة 50 هـ ثم عزله عنها سنة 55 هـ فعاد عقبة إلى المشرق

لقد أيد الله دينه بنوعية خاصة من الرجال، اصطفاهم المولى جل وعلا، واختارهم من بين خلقه لنيل شرف المهمة الجليلة، هؤلاء الرجال الأبطال تغلغل الإيمان في قلوبهم، وارتقت نفوسهم إلى أعلى عليين من أجل نصرة الدين، فلم يبق لهم همة ولا هدف ولا غاية في الحياة إلا لخدمة الإسلام ونشره بين الناس.

إنهم رجال آثروا مرضات الله بدعوة الناس للإسلام على متاع الحياة الدنيا، فودعوا الراحة والدعة والسكون وهجروا الفراش والسلامة وتركوا الديار والأهل والأحباب، وصارت ظهور الخيل مساكنهم، وآلات الجهاد عيالهم، وإخوان الجهاد رفقاءهم،

فلا عجب إذًا أن تنتهي حياتهم في آخر بقاع الدنيا، فهذا يموت في بلاد الصين وهذا في أدغال أفريقيا وذاك في أحراش الهند، وكلهم راضٍ بهذه الحياة وهذه النهاية، طالما توجت حياته بأسمى ما يريد: الشهادة في سبيل الله، وهذه قصة واحد من أئمة هؤلاء الأبطال.

عقبة بن نافع مولده ونشأته:

هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري، ولد قبل الهجرة بسنة، وكان أبوه قد أسلم قديما، لذلك فقد ولد عقبة ونشأ في بيئة إسلامية خالصة، وهو صحابي بالمولد، لأنه ولد على عهد النبي ﷺ وهو يمت بصلة قرابة للصحابي الجليل عمرو بن العاص من ناحية الأم، وقيل أنهما ابني خالة.

ولقد برز اسم عقبة بن نافع مبكرا على ساحة أحداث حركة الفتح الإسلامي التي بدأت تتسع بقوة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، حيث اشترك هو وأبوه نافع في الجيش الذي توجه لفتح مصر بقيادة عمرو بن العاص ﷺ ، ولقد توسم فيه عمرو أنه سيكون له شأن كبير ودور في حركة الفتح الإسلامي على الجبهة الغربية، لذلك أسند إليه مهمة صعبة وهي قيادة دورية استطلاعية لدراسة إمكانية فتح الشمال الإفريقي، ومعلوم عند العسكريين أن سلاح الاستطلاع هو أخطر وأهم سلاح في أي جيش؛ لأنه هو الذي يحدد طريقة الهجوم بين الشجاعة والقوة والذكاء الشديد وحسن التصرف في المواقف الصعبة، وكلها خصال توفرت في عقبة وأدركها عمرو فيه، لذلك عندما عاد عمرو إلى مصر بعد فتح تونس، جعل عقبة بن نافع واليا عليها على الرغم من وجود العديد من القادة الأكفاء والصحابة الكبار، مما يدل على نجابة هذا البطل الشاب.

أرسل عمرو بن العاص والى مصر البطل الشاب عقبة بن نافع إلى بلاد النوبة لفتحها، فلاقى هناك مقاومة شرسة من النوبيين، ولكنه مهد السبيل أمام من جاء بعده لفتح البلاد، ثم أسند إليه عمرو مهمة في غاية الخطورة، وهي تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر ضد هجمات الروم وحلفائهم البربر، فقاد عقبة كتيبة قتالية على أعلى مستوى قتالي للتصدي لأي هجوم مباغت على المسلمين, وتعاقبت عدة ولاة على مصر بعد عمرو بن العاص منهم عبد الله بن أبي السرح ومحمد بن أبي بكر ومعاوية بن حديج وغيرهم، كلهم أقر عقبة بن نافع في منصبه كقائد لحامية برقة.

عقبة بن نافع قائد الفتح الشمالي:

ظل عقبة في منصبه الخطير كقائد للحامية الإسلامية ببرقة خلال عهدي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ونأى بنفسه عن أحداث الفتنة التي وقعت بين المسلمين، وجعل شغله الشاغل الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام بين قبائل البربر ورد عادية الروم، فلما استقرت الأمور وأصبح معاوية ﷺ خليفة للمسلمين، أصبح معاوية بن حديج واليا على مصر، وكان أول قرار أخذه هو إرسال عقبة بن نافع إلى الشمال الإفريقي لبداية حملة جهادية قوية وجديدة لمواصلة الفتح الإسلامي الذي توقفت حركته أثناء الفتنة وذلك سنة 49 هجرية.

كانت هناك عدة بلاد قد خلعت طاعة المسلمين بعد اشتعال الفتنة بين المسلمين، منها ودان وإفريقية وجرمة وقصور خاوار، فانطلق الأسد العنيف عقبة ورجاله الأشداء على هذه القرى الغادر أهلها وأدبهم أشد تأديب،

فقطــع أذن ملــك ودان وأصــبع ملــك قصــور خــاوار حتــى لا تســول لهــم أنفســهم محاربــة المســلمين مــرة أخــرى (مــع العلــم أن هــذا الأمــر لا يجــوز شــرعا لأنــه مثّلــه, ولكــن عقبة اجتهد في تأديبهم بما يردعهم عن المعاودة للخلاف.(

بعــد أن طهــر عقبــة المنطقــة الممتــدة مــن حــدود مصــر الغربيــة إلــى بــلاد إفريقيــة تــونس مــن الأعــداء والمخــالفين، أقــدم عقبــة علــى التغلغــل فــي الصــحراء بقــوات قليلــة وخفيفــة لشــن حــرب عصــابات خاطفــة فــي أرض الصــحراء الواســعة ضــد القــوات الروميــة النظاميــة الكبيــرة التــي لا تســتطيع مجــاراة المســلمين فــي حــرب الصــاعقة الصــحراوية، واســتطاع عقبــة وجنــوده أن يطهــروا منطقــة الشــمال الإفريقــي مــن الحاميــات الروميــة المختلفة ومن جيوب المقاومة البربرية المتناثرة.

و لـم تـوفي معاويــة بعـث ابنـه يزيـد عقبـة واليـا علــى المغـرب سـنة 62 هـ فقصـد القيروان – بعد بناءها. أقواله:

روى ابـن منـده عـن عمـارة بـن سـعد عـن عقبـة بـن نـافع الفهري . وكـان قـد استشـهد بإِفْرِيقيَّـة . أنــه أوصــى ولـده فقـال: لا تقبلـوا الحـديث عـن رسـول الله إلا مـن ثقـة ... ولا تكتبوا ما يشغلكم عن القرآن.

عقبة بن نافع المجاهد المخلص

بعدما انتهى عقبة بن نافع من بناء القيروان ومسجدها الجامع، جاءه الأمر الخليفي بالتنحي عن ولاية إفريقية، وتولية رجل من جنود عقبة اسمه أبو المهاجر دينار، وهو رجل مشهور بالكفاءة وحسن القيادة.

فما كان رد فعل القائد المظفر الذي فتح معظم الشمال الإفريقي وحقق بطولات فائقة عندما جاءه خبر العزل؟ هل تمرد؟ هل امتنع أو حتى تذمر؟

كلا والله.. إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فلا المناصب تبهرهم ولا الدنيا تفتنهم ولا الأحقاد تعرف إلى قلوبهم طريقًا، إنهم خالصين مخلصين لا يريدون إلا وجه الله ﷻ ، امتثل عقبة فورا للأمر وانتظم في سلك الجندية.

استطاع أبو المهاجر القائد الجديد أن يحقق عدة مكاسب استراتيجية في الشمال الإفريقي على حساب التواجد الرومي بهذه المناطق، واستطاع أيضا أن يستميل زعيم قبائل البربر كسيلة بن لمزم، وكان كسيلة شديد التأثير على قومه، قوي الشخصية، محبوبا في قومه، مطاعا منهم، وكان نصرانيًّا متمسكًا بدينه, وكان نجاح أبي المهاجر في إقناعه بالإسلام مكسبا كبيرا للإسلام والمسلمين، ولكن القائد المحنك عقبة صاحب النظرة الثاقبة الخبيرة بطبائع البربر، لم يطمئن لإسلام كسيلة خاصة وأنه قد أسلم بعد وقوعه في أسر المسلمين وبعدما ذاق حر سيوفهم، وقد صدق هذا الحدس فيما بعد كما سنعلم.

عودة الأسد:

لم يمض كثيرا من الوقت حتى عاد الأسد الضاري عقبة بن نافع إلى قيادة الجهاد ببلاد المغرب وانتقل أبو المهاجر في صفوف الجنود مجاهدا مخلصا، وهكذا نرى خير الأمة ينتقل الواحد منهم من الرئاسة إلى عامة الجند بمنتهى اليسر والسهولة، بلا مشاكل أو اعتراض، وبلا أحقاد وأضغان، وذلك لأن الكل يبتغي مرضات الله ولا يريد شيئًا من عرض الدنيا الزائل.

قرر عقبة بن نافع استئناف مسيرة الفتح الإسلامي من حيث انتهى أبو المهاجر، وكانت مدينة طنجة هي آخر محطات الفتح أيام أبي المهاجر، وهنا أشار أبو المهاجر على عقبة ألا يدخل مدينة طنجة؛ لأن كسيلة زعيم البربر قد أسلم، ولكن عقبة كان يشك في نوايا وصحة إسلام كسيلة، فقرر الانطلاق لمواصلة الجهاد مرورا بطنجة وما حولها، خاصة وأن للروم حاميات كثيرة في المغرب الأوسط.

الإعصار المدمر:

انطلق عقبة وجنوده من مدينة القيروان، لا يقف لهم أحد ولا يدافعهم أي جيش، فالجميع يفرون من أمامهم، وكلما اجتمع العدو في مكان، انقض عقبة ورجاله عليهم كالصاعقة المحرقة ففتح مدينة باغاية، ثم نزل على مدينة تلمسان، وهي من أكبر المدن في المغرب الأوسط، وبها جيش ضخم من الروم وكفار البربر، وهناك دارت معركة شديدة استبسل فيها الروم والبربر في القتال وكان يوما عصيبا على المسلمين، حتى أنزل الله ﷻ نصره على المؤمنين، واضطر الأعداء للتراجع حتى منطقة الزاب.

سأل عقبة عن أعظم مدينة في الزاب فقيل له أربة، وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية عامرة، ففتحها عقبة، والروم يفرون من أمامه كالفئران المذعورة، ورحل عقبة بعدها إلى مدينة تاهرت, فأرسلت الحامية الرومية استغاثة لقبائل البربر الوثنية فانضموا إليهم, فقام عقبة في جيشه خطيبا بارعا بعبارات فائقة تلخص رسالة المجاهد في سبيل الله

فقـال: "أيهـا النـاس إن أشـرفكم وخيـاركم الـذين رضـي الله تعـالى عـنهم وأنـزل فـيهم كتابـه، بـايعوا رسـول اللهﷺ بيعـة الرضـوان علـى قتـال مـن كفـر بـالله إلـى يـوم القيامـة، وهـم أشـرفكم والسـابقون مـنكم إلـى البيعـة، بـاعوا أنفسـهم مـن رب العـالمين بجنتـه بيعـة رابحـة، وأنـتم اليـوم فـي دار غربـة وإنمـا بـايعتم رب العـالمين، وقـد نظـر إلـيكم فـي مكـانكم هـذا، ولـم تبلغـوا هـذه الـبلاد إلا طلبـا لرضـاه وإعـزازا لدينـه، فأبشـروا فكلمـا كثـر العـدو كـان أخـزى لهـم وأذل إن شـاء الله تعـالى، وربكـم لا يسـلمكم فـالقوهم بقلـوب صـادقة، فـإن الله ﷻ قـد جعل بأسه على القوم المجرمين."

وبهـذه الكلمـات المـوجزة اسـتثار عقبـة حميـة رجالـه، وأعطـى درسـا بليغـا للأجيـال من بعده عن حقيقة دعوة المجاهد.

التقـى المسـلمون بأعـدائهم وقـاتلوهم قتـالاً شـديداً، وكانـت نتيجتـه معروفـة بعـدما وصـلت معنويـات المسـلمين لقمـم الجبـال، وانتصـر المسـلمون كمـا هـي عـادتهم، وسـار عقبـة حتـى نـزل علـى طنجـة فلقيـه أحـد قـادة الـروم واسـمه جوليـان فخضـع لعقبـة ودخـل لـه الجزيـة، فسـأله عقبـة عـن مسـألة فـتح الأنـدلس, فقـال لـه جوليـان: أتتـرك كفـار البربـر خلفـك وترمـي بنفسـك فـي بحبوحـة الهـلاك مـع الفـرنج؟ فقـال عقبـة: وأيـن كفـار البربـر؟ فقـال: فـي بـلاد السـوس وهـم أهـل نجـدة وبـأس, فقـال عقبـة: ومـا ديـنهم؟ قـال: لـيس لهـم دين فهم على المجوسية.

فتوجـه إلـيهم عقبـة كالإعصـار الكاسـح الـذي يـدمر كـل شـيء بـإذن الله، واختـرق هـذه الـبلاد كلهـا هازمـا لكـل قبائـل البربـر حتـى وصـل بخيلـه إلـى المحـيط الأطلنطـي فاخترق عقبة بفرسه ماء المحيط, ثم قال بقلب المؤمن الصادق الغيور

الذي بذل واستفرغ كل جهده وحياته لخدمة الإسلام: "يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك، اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك."

وبهذه النفوس الصادقة والقلوب المؤمنة والعزائم الفائقة انتشر الإسلام في ربوع الأرض.

كذلك شهد عقبة فتح مصر مع عمرو بن العاص وبنى بها دارا، روى الواقدي أنه لما فُتحت مصر بعث إلى القرى عقبة بن نافع فدخلت خيول المسلمين النوبة، واستُؤذِنَ عمرَ في غزْو المغرب فلم يأذن، ثم أذن عثمانُ لعبد الله بن سعد فأغزى عقبةَ فافتتح إفْرِيقيَّة واختطّ قَيْروانَها.

كـان بنـاء القيـروان و بنـاء جامعهـا أن عقبـة بـن نـافع بعـد أن ولاه معاويـة إفريقيـة استقلالا سـنة 50 هـ و سـير إليـه عشـرة آلاف 10000 فـارس فأوغـل فـي بـلاد إفريقيـة حتـى أتـى وادي القيـروان فأعجبـه فبنـى فيـه مسـجدا لا يـزال إلـى اليـوم يعـرف بجـامع عقبـة و أمر من معه فبنوا فيه مساكنهم

وروى خليفـة بإسـناد حسـن أن عقبـةَ لمـا افتـتح إِفْرِيقيَّـة وقـف علـى القيـروان فقـال: يـا أهـلَ هـذا الـوادي إنَّـا حـالُّون فيـه . إن شـاء الله . فـاظعنوا، ثـلاثَ مـرات، قـال: فمـا نـرى حجـرا ولا شـجرا إلا يخـرج مـن تحتـه دابـة حتـى هـبطْنَ بطـنَ الـوادي، ثـم قـال: انزلـوا باسـم الله.

قيـل: إن عقبـة بـن نـافع انتهـى إلـى "لواتـة" و"مزاتـة" مـن البربـر فأطـاعوا ثـم كفـروا، فغـزاهم مـن سـنته فقَتَـل وسـبى وذلـك سـنة إحـدى وأربعـين، وافتـتح فـي سـنة اثنتـين وأربعـين غـدامس فقَتَـل وسـبى، وافتـتح فـي سـنة ثـلاث وأربعـين مواضـع مـن بـلاد السـودان، وافتـتح "ودَّان" وهي من حيز "برْقة" من بلاد إِفْرِيقيَّة، وافتتح عامةَ بلادِ البربر.

وقدم عقبة بن نافع على عثمان بفتح إِفْرِيقيَّة ·وقد ولَّى عمرو بن العاص عقبةَ إِفْرِيقيَّة لما كان على مصر، وعقبة بن نافع هو الذي بنى القيروان وذلك في زمان معاوية، وكانت هي أصل بلاد إِفْرِيقيَّة ومسكن الأمراء، ثم انتقلوا عنها، وهي إلى الآن عامرة، وكان معاوية بن حديج قد اختطّ القيروان بموضع رآه عقبة بن نافع فلم يعجبه، فركب بالناس إلى موضع القيروان اليوم، وكان غَيضة (وهو المكان كثير الأشجار)، مأوى الوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه، واختطّ المدينة وأمر الناس بالبنيان.

قال خليفة بن خياط: وفي سنة خمسين اختطّ "عقبة" القيروان، وأقام بها ثلاث سنين.

موقف المغاربة من الفتح الإسلامي

اســتغرقت عملية الفتح لبلاد المغرب مدة طويلة حوالي 70 ســنة ويعزى ذلك إلى :أ – توقف عملية الفتح بســبب الفتنة .ب – موقف المغاربة الســلبي من الفتح في البداية (المقاومة الأمازيغية للفاتحين) قاوم الأمازيغ الفاتحين مقاومة شــديدة لم تعترضــهم في أي بلد فتحوه وهذا قبل أن يفهموا الإســلام،ولما فهموه اعتنقوه وتوثقت الأخوة بينهم وبين الفاتحين، وشـاركوا في فتح الأنـدلس .ج– مراحـل الفتح الإســـلامي مرت الفتوحـات في المغرب بمرحلتين :أ– المرحلـة الاستكشافية : (الاستطلاعية) وتندرج ضمن هذه المرحلة الحملات الآتية-1 : حملة عمرو ابن العاص (23هـ 614م)

بدأت الفتوحات للمغرب بعد فتح مصــر مباشــرة بقيادة عمر ابن العاص ووالي مصــر وفاتحها،إذ قام هذه القائد بفتح برقة وطرابلس سنة 23هـ لتامين حدود مصر الغربية من خطر البيزنطيين الذين كانوا يحكمون المغرب ،يث خشـــي من محاولة البيزنطيين اســتعادة مصــر. وتشــير الروايات العربية إلى أن عمرو ابن العاص أراد التوغل فيما وراء طرابلس بعد اســتيلائه عليها حيث اسـتأذن الخليفةعمر بن الخطاب (رضــي الله عنه) في ذلك ولكن الخليفة رفض أن يجيبه ومنعه من تنفيذه وهذه الرواية إن صـــحت فإنها تدل على أن الخليفة عمر كان يخشـــى على جيوش المسلمين من أن تنسحب وتتبعثر في هذه المناطق الشاسعة وهي لم تزل بعد في حاجة إلى توطيد نفوذها وسلطانها في البلاد التي فتحتها واستقرت فيها حديثا كالشام ومصر

2- حملة عبد الله بن سعد بن ابي السرح : (27هــ647م) بعد وفاة عمر بن الخطاب سنة 24 هـــ جاء الخليفة عثمان ابن عفان (ض) الذي قرر استئناف فتح بلاد المغرب، فأرسل سنة 27 للهجرة أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد والي مصر على رأس حملة قوية اجتاز بها طرابلس واستولى على سفن الروم (البيزنطيين) التي كانت راسية على الشاطئ هناك، ثم واصل سيره إلى أفريقيا) تونس) إلى أن التقى بجيوش البيزنطيين في موقعة سبيطلة سنة 27هـــ وكان جريجوريوس حاكم إفريقيا هو الذي يقود جيوش البيزنطيين. انتصـــر المســلمون في هذه الموقعة انتصـــارا حاسـما وقتل جرجير (كما يسـميه العرب) على يد عبد الله ابن الزبير، الذي ترجح إليه الرواية الإســلامية الفضـل في هذا الانتصـــار، على أن عبد الله بن سـعد لم يسـتطع الاسـتمرار طويلا في عمليته العسكرية بالمغرب، إذ اضطر إلى العودة إلى مصر لمحاربة أهل النوبة الذين هددوا مصـــــر من الجنوب، لذلك عقد معاهدة مع البيزنطيين، التزم فيها بإخلاء إفريقيا مقابل جزية سنوية كبيرة يدفعها البيزنطيون

3–حملة معاوية ابن حديج: (45هـــ666م) بتولي معاوية ابن أبي سفيان الخلافة قرر إعادة فتح إفريقيا وعهد بذلك الأمر إلى معاوية بابن حديج الكندي .تقدم هذا الأخير بجيوشـــــه واتخذ من القيروان معسكرا ثابتا، ومنه وجه السرايا إلى المراكز البيزنطية، ومن بين هذه السرايا سرية قادها عبد الله بن الزبير إلى المدن الساحلية، فاستولى على قابس وبنزرت وسوسة، ومن مينائها أنزل الأســـطول البيزنطي جيشـــا بقيادة البطريق نكفور لمهاجمة المعســـكر العربي، فهاجمهم عبد الله ابن الزبير وتراجعوا إلى مراكبهم. وهناك سرية أخرى أرسلها ابن حديج بقيادة الأمير الأموي عبد الملك بن مروان إلى حصـــن جلولا وهو من أهم الحصـــون البيزنطية حيث حاصـــره واســـتولى عليه بعد قتال عنيف. إلى جانب الحملات البحرية التي قام بها ابن حديج للإغارة على جزيرة صقلية، غير أن هذا القائد لم يستمر طويلا حيث عزله الخليفة معاوية وولى مكانه القائد عقبة بن نافع .ب– مرحلة الفتح الحقيقي : وتتمثل فيما يلي

1- حملة عقبة بن نافع الأولى: (50هـــــ670م) استمرت خمس سنوات وكان اختيار معاوية لعقبة موفقا، لأن عقبة يعتبر من أوائل المجاهدين في المغرب إذ دخل برقة مع ابن خالته عمرو ابن العاص سنة 23هـ وكان عمره 14 سنة. فظل مرابطا هناك وفي خلال إقامته في برقة، شارك في الفتوحات التي قام بها المسلمون في إفريقيا (تونس). ففي حملة عمرو ابن العاص على طرابلس كان عقبة على رأس الجيش الذي أخضـــــع قبيلة لوته بتلك النواحي كما انضم إلى حملة عبد الله بن سعد وتشير المصادر إلى أنه في الوقت الذي كان فيه معاوية ابن حديج يرسل السرايا إلى الأقاليم الشمالية الساحلية كان عقبة يحارب في الصحراء الجنوبية في فزان بالواحات الجنوبية.وهكذا يبدو أن عقبة طوال هذه المدة التي ســـبقت ولايته والتي تقدر ب ربع قرن، أصـبح رجلا مرابطا مجاهدا في سـبيل الله لدرجة أن بعض الروايات جعلت منه بطلا أسطوريا. رأى عقبة في بداية ولايته أن يعمل على توطيد نفوذ المسلمين

وذلك ببناء مدينة عربية تكون بمثابة قاعدة عســكرية ثابتة، وعلى هذا الأســاس اختار مدينة القيروان لموقعها الاستراتيجي إذ هي بعيدة عن الساحل، ومن ثم تكون بعيدة عن غارات البيزنطيين وأيضــا عن الصــحراء ومن ثم تكون آمنة من غارات البربر .وبتأسـيس هذه المدينة اتخذت العمليات العسكرية الإسلامية في المغرب طابعا ثابتا مستقرا، وهذه العمليات هي مجرد استكشافية تقوم بها قوات المسلمين، ثم تعود إلى برقة أو مصر. وبعد أن أتم عقبة بناء القيروان جاء أمر الخليفة معاوية بعزله سنة 55هـ، وتختلف الروايات على أسباب عزل عقبة عن ولاية المغرب .حملة أبو المهاجر دينار(55 هـ ــ678 م) : ولى أبا المهاجر دينار مكان عقبة وهو رجل لا يقل مهارة وخبرة عن عقبة فامتدت ولايته 07سنوات أي إلى (62هـ682م)

وفي عهده برزت عدة عناصر جديدة أهمها:

1- كره أبو المهاجر دينار الإقامة في القيروان، لأنها ارتبطت بعقبة، فهجرها وحمل الناس على هجرها ولكنه لم يخربها .

2- قام ببناء مدينة تكروان جنوب القيروان بالتعاون مع السكان في البناء و الدفاع عنها-

3- كسب ولاء السكان المحليين وذلك باتباع سياسة اللين، محاولا استمالتهم عن طريق نشر الإسلام بينهم. وقد نجحت هذه السياسة نجاحا كبيرا، فاعتنق الإسلام زعيم قبيلة أوربة: كسيلة وكان نصرانيا متحالفا مع البيزنطيين. واعتناق كسيلة للإسلام معناه انضمامه الصريح إلى جانب المسلمين. وكانت النتيجة أن تحالف العرب المسلمون مع البربر. وهكذا استطاع أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة أن يفتح المغرب الأوسط (الجزائر) والاستيلاء على مدنه الساحلية، فوصل حتى تلمسان. ويعد أبو المهاجر دينار أول قائد عربي مسلم وطأت أقدامه أرض الجزائر- .

2- حملة عقبة ابن نافع الثانية(62هـ682) : في سنة 60هـ توفي الخليفة معاوية بن ابي سفيان، فخلفه ابنه يزيد الذي اقتنع بفضل عقبة وحسن بلائه في عملية الفتح، ولهذا أعاد عقبة إلى ولاية إفريقيا بعد أن عزل أبو المهاجر، وبذلك تبدأ ولاية عقبة الثانية ومدتها سنتان (62هـ 64هـ) (682م684 م).

3- لم تكن لعقبة تلك النظرة السياسية الهادئة التي كانت لأبي المهاجر، بل كان رجلا عنيفا متشبعا بالحماس الصوفي الذي يدفعه إلى التماس الشهادة وبيع نفسه إلى الله -كما يقول هو نفسه وهذا الحماس الديني الشديد جعله يسخر من سياسة سلفه ويستهينه بقوة كسيلة وأصحابه، بل ويعمد إلى الإساءة إليهم.

ويروى في هذا الصدد أن أبو المهاجر الذي أبقاه عقبة في جيشه انتقده يوما قائلا له: ما هذا الذي صنعته؟ كان رسول الله (ص) يستألف جبابرة العرب، وأنت تجيء إلى رجل هو خيار قومه وفي دار عزه وقريب عهد الكفر فتفقد قلبه توثق من الرجل فإني أخاف فتكه. (الإشارة إلى كسيلة .(غير أن عقبة لم يهتم بالأمر، قام عقبة بحملته الكبرى المشهورة التي فتح فيها المغرب من أدناه إلى أقصاه حتى بلغ المحيط الأطلسي واقتحمه بفرسه قائلا: " اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذه البحر، لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد سواك".فقد توغل في بلاد السوس أقصى جنوب المغرب وخاض معارك عنيفة مع قبائل البربر، فقد فيها طائفة من خيرة رجاله ثم عاد إلى القيروان

.ويبدو أن أخبار مقلقة قد بلغت عقبة عن إفريقيا إذ انه لم يكن يصـــــل إلى المغرب الأوســـط حتى بعث بمعظم جنده إلى القيروان على عجل، ولم يبق معه إلا جزء صــــغيرا من جنده، فقد حاول بهذا الجزء أن يقيم في الجزائر قاعدة عســــكرية دائمة على غرار القيروان في تونس، واختـار لهـذا الغرض بلـدة تهودة في نواحي نهر الميزاب جنوب الأوراس.واضـــطر للاسـتيلاء على هذه البلدة التي تبعد عن خطوط سـيره ومواصـلاته التي تبدأ منها. وهنا يظهر على مســرح الأحداث كســيلة في حشـد كبير من البربر والبيزنطيين. و كما تقول المصـــادر اسـتطاع الفرار من جيش عقبة وأخذ يترقب الفرصــة المناسـبة للانتقام منه، وأمام هذا الحشـد الهائل من الروم والبربر أحس عقبة بنهاية الأمر فطلب من أبي المهاجر أن ينجو بنفسـه ولكنه رغب في الشهادة معه ودارت المعركة عند تهودة سن 64 هــــ فاستشهد القائدان وهكذا تراجع المسلمون عن القيروان التي احتلها كسيلة 05 سنوات (64هـ 69هـ) (684م 689م)

4–حملة زهير ابن قيس البلوي (69 هـــ 684 م): انطلق زهير من برقة بعد أن كلف برئاسة جيش من العرب والأمازيغ إلى إفريقيا، والتقى بكسيلة قرب القيروان بموقعة ممس ودارت معركة وقتل كسيلة ومن نتائج هذه المعركة

.أ – عودت القيروان والمجموعات الإسلامية فيها وفي إفريقيا والمغرب الأوسط آمنة .

ب – تحطم مقاومة فرع البربر البرانس واوربة وانتهى دورهم .غادر زهير القيروان إلى برقة، لكنه وقع في كمين بيزنطي فاستشهد بمن معه .ولم يتمكن الأمويون آنذاك من التصدي لهذا الاعتداء، لانشغالهم بثورة ابن الزبير فركنوا إلى مهادنة البيزنطيين ومسالمتهم .

5–حملة حسان بن نعمان (74هـ 693 م) (85 هـ704 م) : قرر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان استئناف الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فعين قائدا ماهرا من أهل الشام هو حسان بن النعمان وأرسله على رأس جيش كبير وطلب من أخيه عبد العزيز بن مروان (والي مصر) أن يزوده بكل ما يحتاج إليه من عتاد ومال. وقد كان هذا القائد كفؤا لهذه المهمة حيث قام بمهمات في المنطقة لهذا يعتبر في نظر المؤرخين

-1 :الفاتح الحقيقي للمغرب

- 2 . وضـع أسـس النظام السـياسـي والعسكري والثقافي والإداري في المنطقة .لقد نجح حسان في جهوده ضد الروم فاحتل قرطاجة سنة (74هـ 693م) وقضى على عناصر الشغب في ضواحيها، ولتاكيد الوضع بنى بجوارها مدينة تونس، لتخلفها في مجدها، وبنى دارا لصناعة السفن فيها كما وضـع نواة مسـجد جديد المعروف بجامع الزيتونة الذي سيصـبح ثاني المساجد الكبرى في إفريقيا الإسـلامية، بعد أن أخضـع الكثير من نواحي إفريقيا، واصـل سـيره في اتجاه منطقة الأوراس وهنا اصــطدم بمقاومة عنيفة التي تقودها إمرأة تدعى الكاهنة زعيمة قبيلة جراوة من فانهزم المســلمون وتراجع حســان ومن معه إلى ما وراء طرابلس، وبقي هناك لمدة خمس سـنوات .أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بإرسـال المسـاعدات إلى حسـان بن النعمان الذي استقر ببرقة. ولما استكمل هذا الأخير عدته أعاد الكرة نحو إفريقيا، وكانت الأوضاع قد تغيرت تغيرا كبيرا لصالح المسلمين،

ذلك أن الكاهنة قد أمرت أتباعها بإحراق الغابات وإفســـاد المزارع وتخريب القرى في المناطق الخاضـعة لسلطتها ظنا منها أن ذلك من شأنه أن يثبت عزيمة المسلمين ويجعل حدا لرغبتهم في الاستيلاء على إفريقيا .ولا شك أن سياسة تخريب الزراعة يبعث الرعب والهلع في نفوس الأهالي وجعلتهم ينظرون إلى المسلمين نظرة جديدة ويرغبون في قدومهم لإنقاذ البلاد من الدمار. وهكذا كان استقبال أهالي إفريقيا لحسان وجنده يختلف تماما عن ذي قبل، فأطاعه أهل بلاد الجويد ودخلت في حمايته كما فتح مدينة قرطاجة وطرد منها الروم .

ثم تابع حســان نشــاطه فتوجه إلى المناطق التي عاث فيها إتباع الكاهنة فســادا ففتحها وكانت الكاهنة ضعف شأنها وانفض الناس من حولها فألحق بها هزائم كبرى ولقيت حتفها أخيرا في جبال الأوراس) أوخر سنة 81هـــ 700م) وبهذا تم فتح معظم مناطق إفريقيا بصفة نهائية وانتهت المقاومة التي تعرض الفتح الاسلامي في هذه البلاد .

واســتقر حســان بعد ذلك بالقيروان فبذل جهودا كبرى لتنظيم شـؤون البلاد وأقام الدواوين وضرب السكة وفرض الخراج على أهالي الذمة فانتظمت الأمور وانتشر الأمن وفي أواخر سنة (85هــ 704م (عزل حسان فعاد على دمشق ونصب مكانه موسى بن نصير-6 .حملة موسى بن نصير (86هـ 95هـ) (705م 714م): ذلك أن موسى بن نصير الذي ولي إفريقيا والمغرب لم يضيف شيئا ولم يبذل جهدا في إفريقيا والمغرب الأوسط وكل ما فعله هو أنه دعم المكاسب القديمة في مناطق كانت هادئة ومفتوحة ولم تأت سنة (92هـــ 711م) حتى تم فتح الأندلس فســاهم البربر مســاهمة كبرى في ذلك والدليل على مســاهمة المغاربة في عملية فتح طارق بن زياد .نتائج الفتح الإســلامي في بلاد المغرب: أسـفر الفتح الإســلامي لبلاد المغرب عن نتائج هامة

: 1–زوال سلطة البيزنطيين من المنطقة وفقدهم قاعدة هامة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي فأصبحت السيادة فيه للمسلمين

.2-انتشار الإسلام بين المغاربة والذي وجد طريقه إلى نفوسهم منذ أن دخلتها الجيوش الإســـلامية الأولى. وبعد مدة قصـــيرة، ســـيصـــبحون من أكبر دعاته وقادة جيوشـــه، فهم الذين سيفتحون الأندلس وينشرون الإسلام في إفريقيا وجنوب أوروبا

.3- للفتح الإسلامي تأثير قوي في حياة السكان تمثل أساسا في انتشار الدين الإسلامي واللغة والثقافة العربية الإسلامية فصار للمغرب طابعه العربي الإسلامي المعروف به حتى اليوم

4-لم تقتصــر نتائج الفتح على إعطاء الطابع العربي الإســلامي لبلاد المغرب فحســب، بل تحولت هذه المنطقة إلى جسر تنتقل عبره التأثيرات الحضارية إلى أوربا وإفريقيا.

المظاهر الحضارية للمغرب الإسلامي

1- التنظيم الإد اري : دخلت بلاد المغرب تدريجيا ضــمن الإمبراطورية الإســلامية خلال القرن(1هـ07 م) و بحلول القرن (02هـ 08م) كانت عمليات الفتح قد استكملت وتمكن المغاربة من فتح معظم بلاد الأندلس .وقد اندرج التطور الســياســي لبلاد لمغرب في هذا العهد ضــمن التطور العام للدولة الإسـلامية في عهديها الأموي والعباسـي، و من خصـوصـيات بلاد المغرب أنها مرت بمرحلتين متميزتين هما

:أ- عهد الولاة : توالى على حكم المغرب الإســـلامي 22 واليا طيلة العهدين الأموي والعباســي، وكان حاكم المغرب يقيم في القيروان، ويطلق عليه اســم والي إفريقيا، يعينه الخليفة لينوب عنه في تسـيير شـؤون الإدارة المدنية ولعسكرية والدينية3. فالوالي هو رئيس الولاية وقائد جيشها، وإمام الصلاة فيها يساعده موظفون سامون مثل

:أ–عامل الخراج : الذي قد يقيم في المغرب أو يأتي من المشـــرق في مواســـم جمع الخراج .ب– القاضـــي وتوابعه من المحتســـبين والمفتين والمقرئين، يعين هؤلاء من قبل الخليفة مباشرة إثباتا لسلطتهم المستقلة عن أي تأُثير قد يصدر من الولاة .في الميدان الإداري تأسست ثلاثة دواوين رئيسية هي: ديوان الجند، وديوان الخراج، وديوان الرسائل .واستخدم فيها الموظفون الذين اشـــتغلوا في الإدارة البيزنطية كما اســـتعملت اللغة العربية أول الأمر قبل أن يتم التعريب التدريجي، وتحل العناصر المغاربية محل العناصر البيزنطية، وكذلك الشأن بالنسبة للعملة.

اتسمت الفترة الأولى من عهد الولاة بالسلم والتنظيم وحسن معاملة المغاربة، من ذلك أن الخليفة عمرو بن عبد العزيز (99هـ 101هـ) أرسل إلى بلاد المغرب طائفة من العلماء لتفقيه المغاربة في مبادئ الدين الجديد، واللغة العربية، وحرم على الولاة فرض الجزية على المســلمين الجدد، كما عمل على كســب ثقة المغاربة بأن أتاح لهم فرص الرقي الاجتماعي بانخراطهم في الوظائف الإدارية والعسكرية،

فأثبت لهم أن العهد الإســـلامي الجديد يختلف كثيرا عن العهود الرومانية والوندالية والبيزنطية الســـابقة .غير أن عهد بعض الولاة كان شـــديد الوطأة على المغاربة، بما تميز به هؤلاء الولاة من أمثال يزيد بن أبي مسلم من القسوة والتعسف في المعاملة، ولهذا وجد المغاربة في الحركات المعارضـة للسلطة المركزية خير وسيلة للتعبير عن استيائهم، والمطالبة بتحقيق العدالة والمساواة التي جاء بها الإسلام

2- عهد الإمارات:يعد منتصف القرن (2هـــ 8م) وبداية القرن (3هـــ 9م) عهد التجديد السـياسـي، إذ توصـلت الثورات الاجتماعية إلى تأسيس ثلاث إمارات مستقلة سياسيا عن العباسيين، ولكنها ظلت مندمجة في جسم الأمة الإسلامية حضاريا- .

3-التطور الاقتصـــادي:من مزايا الفتح الإســـلامي: أن دخل المغرب من جديد ضـــمن التيار العام للاقتصـاد العالمي آنذاك، فقد تأسست الموانئ لصناعة السفن وتجهيز الأساطيل، وانطلقت القوافل التجارية عبر الصـــحراء، وإلى الشـــرق، ونحو أوروبا محملة بالحبوب، زيت الزيتون ،القطن ،الخشب ،الملح،التمور، العسل ،المرجان ،الخزف ،العنبر والعطور،

إضافة إلى الذهب .طرأ تحول هام على المسالك البرية التي ارتبطت في القديم بين غانا القديمة التي تشمل جنوب موريطانيا وشرقي السنغال، وجزء من مالي، وهي غانا الحالية، وكذلك مصر عبر بلاد النوبة، فقد أصبحت هذه الطرق تمر عبر المغرب، وتميزت بمسلكين رئيسيين يخترقانه من الشرق إلى الغرب وهما: طريق الهضاب وطريق الواحات. وتفرعت عنهما مسالك باتجاه شمالي جنوبي تصل بين ضفاف البحر المتوسط وجنوب الصحراء .ازدادت أهمية المسالك البحرية بعد فتح صقلية، ومكنت المغاربة من التعامل مع جزر البحر المتوسط وأوروبا، فأصبح الحوض الغربي للمتوسط بحرا إسلاميا تجول فيه السفن المغاربية والأندلسية في كل اتجاه. أما الصناعة والزراعة فقد انتعش الإنتاج الزراعي والرعوي، ودخل المغرب الإسلامي مزروعات جديدة مثل الأرز، قصب السكر ،القطن ،البرتقال والحناء

قامت في المناطق الجبلية صـــناعة اســـتخراجية حيث توفرت الخامات المعدنية غذت الصـــناعات الخزفية، وشـــهدت تطورا تدريجيا في تقنياتها بســبب رواجها في الأســواق العالمية وخاصة قطاع النسيج ،الجلود ، الأسلحة ،الحلي وبناء السفن

.الناحية الثقافية : استمرت منطقة المغرب في نشر تعاليم الإسلام واللغة العربية الثقافة الاســـلامية بين السـكان، وفي المناطق المجاورة لها خاصـــة في بلاد الســـودان بالتوازي مع الازدهار التجاري والاقتصـادي، كما تجسدت روح التعاون في المراكز الثقافية التي اشتهرت بها القيروان، فاس وتيهرت.

وكان طلاب العلم يؤمونها من كل ناحية لدراسة فنون المعرفة من فقه، أدب ،تاريخ ،علم الفلك، الهندســة ،الحســاب ،الطب والصــيدلة كما تجســدت روح التعاون في إقامة طريق فريدة للاتصـــالات الســريعة بواســطة المنارات .الناحية الاجتماعية : تنوعت الفئات الاجتماعية في المغرب حسـب تنوع نشـاطاتها، فبعد الحكام وكبار الموظفين، تأتي فئة التجار، صــاحبة النفوذ بسبب ثرواتها، ثم تليها فئة الجند التي تتقاضى رواتبها من بيت المال.

أما فئة العلماء التي تشرف على الشؤون الدينية والتربوية، فلا تعتبر نفسها ذات مهن مستقلة، بل الكثير من أفرادها يتعاطون إلى جانب طلب العلم ونشره مهنا مختلفة كوظيفة القضاء ،الزراعة والتجارة .. يشكل أهل الذمة فئة خاصة،

فهم خليط من اليهود و النصارى الذين أقاموا بالمغرب منذ العهود السابقة للفتح، كما جاء بعضهم الأخر بعد الفتح في سياق التجارة مع المراكز الكبرى آنذاك .ـــ يمثل الرقيق الفئة الدنيا في المجتمع، فشكلوا القوى العاملة في أشغال البناء والحرف والأعمال المنزلية

معركة اسبيطلة.

معركـة سـبيطلة هـي معركـة قامـت مـا بـين المسـلمين والـروم فـي القـرن الهجـري الأول فـي عهـد الخليفـة عثمـان بـن عفـان وقـد انتصـر المسـلمين فيهـا انتصـارا سـاحقا، حققوا فيها نصرا ساحقا على الروم

فتح إفريقية

عنـدما أراد الخليفـة عمـر بـن الخطـاب أن يفـتح الـبلاد الأخـرى القريبـة والبعيـدة مـن الجزيـرة العربيـة وأن يوسـع حـدود الدولـة الإسـلامية قـام بتكليـف بعـض القـادة ومـن أبـرزهم عمـرو بـن العـاص لفـتح مصـر والشـام وبعـد ذلـك فتحواليبيـا ولكـن اغتـال عمـر بـن الخطاب قام عثمان بن عفان بولاية شئون المسلمين،

وصـار خليفـة علـيهم قـام بعـزل عمـرو بـن العـاص وولـى مكانـه عبـد الله بـن سـعد بــن أبــى الســرح فــأراد أن يثبــت لــه أنــه قــادر علــى اســتكمال الفتوحــات، فجهــز جيشــا لاسـتكمال الفتوحـات وتوجـه بـالجيش إلـى مصـروكان اسـمه ((جـيش العبادلـة)) لأنـه كـان يضـم العبادلـة الأربعـة فجمـع عـدد مـن المقـاتلين مـن مصـر وقـدر عـدد الجـيش الـذي شكله بــن الســرح إلــى مايصــب إلــى 70000 مقاتــل مــن أبنــاء الجزيــرة العربيــة ومصــر ثــم إلـى برقـة بليبيـا وهنـاك لقـى عقبـة بـن نـافع وقـد جهـز عقبـة جيشـا مـن أهـالى برقـة لكـى يضـاف إلـى الجـيش الـذي مـع بـن السـرح وبعـد ذلـك اجتمـع عقبـة مـع بـن السـرح لوضـع خطة لفتح سبيطلة

الخطة

عند اجتماع عبد الله بن أبى السرح بعقبة بن نافع الذي كان مقيما في برقة وهو ذو دراية بالأحوال البربرية ويعرف طرق الصحراء لأنه عاش بينهم فترة طويلة وأثناء الاجتماع أخبر عقبة عبد الله بأن المعركة القادمة هي من أهم المعارك في تاريخ المسلمين حيث أن هناك ملك مستبد يدعى ((جرجيريوس)) ومطلق عليه اسم ((جرجير)) وهذا الملك يهابه كل الناس من طرابلس في ليبيا حتى مدينة طنجة في المغرب لأنه استقل بحكمه عنامبراطورية الروم وهذا ما يجعل الناس يخافون منه ويرهبونه ويتخذ من مدينة سبيطلة عاصمة له وأنه يجب عليه عند فتح سبيطلة عدم إقامة أى حملة جانبية حتى لاينقض الروم والبربر عليهم فيقتلوهم ويستنزفواالجيش الإسلامي حتى أنه نصحه بعدم فتح طرابلس أول المدن التي سيمر عليها الجيش الإسلامى

جرجيريورس

عندما علم جرجيورس بالأمر اجتمع بضباطه وجنوده وخطب فيهم بأنه يجب أن تكون نهاية العرب والمسلمين على يد أهل سبيطلة ومما أغرى أتباعه أنه خصص جائزة لمن يقتل عبد الله بن سعد بن السرح وهى ألفدينار وزواجه من ابنته فتسارع الضباط على هذه الجائزة المغرية وعندما علم عبد الله بن سعد بالأمر استهزئ وسخر مما يفعله جرجير وخطب في المسلمين بأن من يقتل جرجير فإنه سيعطيه ألف دينار ويزوجه ابنة جرجير وبهذا صارت ابنة جرجير معلقة ما بين المسلمين والروم ولكن لم يكن هذا غاية المسلمين إذ أنهم لم يرد واحد منهم زواج ابنة جرجير أو الحصول على ألف دينار وإنما كان هدفهم هو فوز المسلمين وتحقيق النصر في كل أرجاء الأرض .

المعركة

تجمع الجيش الإسلامي للمعركة ولم يفتحوا أى مدينة تقابلهم كما أوصى عقبة حتى لاينقض عليهم البربر والروم ويقضوا على الجيش الإسلامي وعندما وصلوا إلى سبيطلة اشتبكوا مع جيش جرجير واستمر ذلك عدة أيام ولم يستطيعوا إحراز أى انتصار على جرجيريورس لأنه عند حلول كل ظهيرة ينسحب جيش جرجير لكى لايستنزفهم المسلمين ولكن استأخر عثمان بن عفان نصر المسلمين، فبعث إليهم جيش آخر ((مدد)) بقيادة عبد الله بن الزبير حتى ينهوا المعركة

اجتماع عبد الله بن الزبير مع بن سعد

وصل جيش عبد الله بن الزبير إلى المكان الذي يخيم به المسلمون ووضعوا خطة جديدة وكان مقترحها هو ابن الزبير وهى أنه عندما يحارب المسلمون في المعركة يقوم القادة باستئناس مجموعة من خيرة المقاتلين من القتال

وعندما تنتهي المعركة كالعادة ينقض هؤلاء الجنود على جيش جرجير فيقضوا عليه ثم يستولوا على مدينة سبيطلة وبهذا يفوز المسلمون

تنفيذ خطة الزبير

بعد انتهاء المعركة في يوم ما، استأنس بن الزبير عدد من الفرسان وبعد أن انتهت المعركة انقض الفرسان على جيش جرجير مفاجأة وقضوا عليه وحاصروا سبيطلة وانتصروا في المعركة وقتل عبد الله بن الزبير جرجير وأسروا ابنته التي لم تطق الأسر فانتحرت بأن أوقعت نفسها من على سنام الجمل

الانتصار

وقد سارع شيوخ القبائل أن يتصالحوا مع المسلمين وفرض المسلمون ضريبة دفاع على من لم يبتغ الدخول في الإسلام وهي ثلاثمائة قنطار من الذهب

عزل عقبة بن نافع من منصبه

تميَّز عقبة بن نافع من القادة الســــابقين، الذين جاؤوا فاتحين إلى المغرب في أنه كان يرى أن تحقيق الهدف في الفتح لن يحصــل دون الاســتقرار في كل المناطق المفتوحة، وهذا ما جعله يقرر فوراً قاعدة ثابتة، تكون محطاً لرحالهم. وقد تجســـدت هذه القاعدة بمدينة القيروان، التي أنشــأها في مكان مناســب لظروف الفاتحين في تلك الحقبة من الزمن، فقد اختارها لتكون بعيدة عن البحر، بما يمكنها من تحاشــي الهجمات البيزنطية البحرية المباشــرة، كما حرص أن تكون غير موغلة في الداخل، من أجل تحاشي هجمات المعارضين والمتربصين المغاربة، كذلك أرادها أن تكون قريبة من منطقة المراعي من أجل تربية المواشي والإبل. استتبع إنشاء القيروان نتائج على درجة كبيرة من الأهمية إذ لم يكد يتم تخطيطها سنة 55هـ/675 حتى ظهرت ولاية إفريقية، وبدأت أنظار العرب تتجه إليها، إذ أصبح لهم فيها عاصمة، أو مركز يتبعه الإقليم

في سنة 55 هـ قام والي مصر مَسْلَمَةُ بن مُخَلد الأنصاري بعزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية، ثم أعاده يزيد بن معاوية بن أبي ســـفيان، الذي اســـتلم الخلافة بعد أبيه، إلى ولاية إفريقية، فبادر من فوره إلى إنفاذ حملة عسكرية كبيرة إلى المغربين الأوسط والأقصـى، فوصـل إلى شـاطئ المحيط الأطلسـي، وقيل إنه دخل المحيط حتى بلغ الماء بطن فرسـه، ورفع يده إلى السـماء وقال: «يا رب لولا أن البحر منعني لمضـيت إلى مسـلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك مقاتلاً من كفر بك .« وكانت هذه الحملة الكبيرة قد انطلقت من القيروان إلى مدينة باغاتة في بداية جبال الأوراس بالجزائر، ومنها انطلقت سريعاً حتى وصلت إلى تَاهِرْتَ، وهناك تمكن عقبة بجيشه من هزيمة الروم وجميع المتعاونين معهم، مما ساعده على التوجه إلى المغرب الأقصـى (المملكة المغربية اليوم)، فوصـــل إلى طنجة ثم إلى منطقة الســـوس الجنوبية، حتى واحة سجلماسة، التي عاد منها مرة أخرى إلى شمال المغرب الأقصى،

ومن هناك إلى المغرب الأوســـط عبر ممر تازا، ومنه تابع طريق العودة إلى القيروان، وحينما وصـــل إلى موقع (طبنة)، التي تبعد عن القيروان نحواً من 300كم، ترك لجنوده حرية العودة إلى ديارهم بالقيروان، ولم يبق معه 300 فقط، وفي هذه الفترة الحرجة هرب كسـيلة لعنه الله، وسـنحت له الفرصـة للاتصـال مع الروم بتهودة، التي كان عقبة قد قرر أن يفتحها، وفي الوقت نفســه جمع معظم أبناء قبيلته، واسـتطاع بغدره وحقده أن يباغت عقبة بتهودة. ورغم أن عقبة تأكد من عدم التكافؤ بين تلك القوات، التي اسـتبقاها معه وبين قوات كسـيلة، فإنه أصـر على مواجهة الواقع بشجاعة وإقدام، وفضَّل ذلك على الهزيمة، فأمر جنوده بالنزول عن خيولهم وأمرهم بكسـر أغماد سـيوفهم تعبيراً عن الصـمود حتى النهاية، وهكذا فقد قاتلوا حتى اسـتشـهدوا جميعاً وفي طليعتهم القائد عقبة بن نافع، فدفن بتهودة التي أصـــبحت منذ ذلك الحين تســـمى (سيدي عقبة) إجلالاً وإكراماً وتعظيماً لشخصه ومقامه.

وحينما استقرت الأمور وانتقلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، أمر بتكليف زهير بن قيس البلوي بالتصدي لكسيلة لعنه الله وتحرير القيروان من سيطرته. وفي سنة 69هـ/688م، التقى البلوي مع كسيلة في معركة أسفرت عن هزيمة الكلب كسيلة الاسلامية بي افريقية

ولاية عقبة بن نافع إفريقية وبناء مدينة القيروان

إن معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن إفريقية حسب واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهري، وكان مقيما ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص، وله في تلك البلاد جهاد وفتوح. فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس، فدخل إفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر، فكثر جمعه، ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام،

فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم، ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد، فقصد موضع القيروان، وكان أجمة مشتبكة بها من أنواع الحيوان، من السباع والحيات وغير ذلك،

فدعا الله، وكان مستجاب الدعوة، ثم نادى: أيتها الحيات والسباع إنا أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه. فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا، وقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة، فبنيت، وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع، وتم أمرها سنة خمس وخمسين وسكنها الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها)

قد ذكرنا عزل عقبة عن إفريقية وعوده إلى الشام، فلما وصل إلى معاوية وعده بإعادته إلى إفريقية، وتوفي معاوية وعقبة بالشام، فاستعمله يزيد على إفريقية في هذه السنة وأرسله إليها، فوصل إلى القيروان مجدا، وقبض أبا المهاجر أميرها وأوثقه في الحديد وترك بالقيروان جندا مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي، وأحضر أولاده،

فقال له: إني قد بعت نفسي من الله، عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله. وأوصى بما يفعل بعده.

ثم سار في عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغاية، وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم، فقاتلوه قتالا شديدا وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعا وغنم منهم غنائم كثيرة، ودخل المنهزمون المدينة وحاصرهم عقبة. ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب، وهي بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة، فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم، ورحل إلى تاهرت.

لما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم، فاجتمعوا في جمع كثير والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا، واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ثم إن الله تعالى نصرهم فانهزمت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

ثم سار حتى نزل على طنجة فلقيه بطريق من الروم اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه، ثم سأله عن الأندلس فعظم الأمر عليه، فسأله عن البربر، فقال: هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله، وهم بالسوس الأدنى، وهم كفار لم يدخلوا في النصرانية ولهم بأس شديد. فسار عقبة إليهم نحو السوس الأدنى، وهي مغرب طنجة، فانتهى إلى أوائل البربر، فلقوه في جمع كثير، فقتل فيهم قتلا ذريعا وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه، وسار هو حتى وصل إلى السوس الأقصى، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم، وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا وغنموا منهم وسبوا سبيا كثيرا، وسار حتى بلغ ماليان ورأى البحر المحيط، فقال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك.

ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه، واجتاز بمكان يعرف اليوم بماء الفرس فنزله، ولم يكن به ماء، فلحق الناس عطش كثير أشرفوا منه على الهلاك، فصلى عقبة ركعتين ودعا فبحث فرس له الأرض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء، فنادى عقبة في الناس فحفروا أحساء كثيرة وشربوا، فسمي ماء الفرس.

فلما وصــل إلى مدينة طبنة، وبينها وبين القيروان ثمانية أيام، أمر أصــحابه أن يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من العدو، وأنه لم يبق أحدا يخشاه، وسار إلى تهوذة لينظر إليها في نفر يسير، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوه إلى الإســلام فلم يقبلوا منه...فلما كان الآن ورأى الروم قلة من مع عقبة أرسـلوا إلى كسـيلة وأعلموه حاله، وكان في عسكر عقبة مضمرا للغدر، وقد أعلم الروم ذلك وأطمعهم. فلما راسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه. وكان أبو المهاجر موثقا في الحديد مع عقبة. فزحف عقبة إلى كسيلة، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزنا أن تمرغ الخيل بالقنا ... وأترك مشــدودا علي وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع من دوني تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه، فقال له: الحق بالمســـلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشـــهادة. فلم يفعل وقال: وأنا أيضـا اريد الشهادة. فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد، وأسـر محمد بن أوس الأنصـاري في نفر يسير، فخلصهم صاحب قفصة وبعث بهم إلى القيروان. فعزم زهير بن قيس البلوي على القتال، فخالفه حنش الصــنعاني وعاد إلى مصــر، فتبعه أكثر الناس، فاضــطر زهير إلى العود معهم، فسار إلى برقة وأقام بها.

اقتح لمغرب:

الفتح الإســـلامي للمغرب اســـتغرق ما يناهز القرن من الزمن (حوالي 70 ســـنة) و المصادر التاريخية لا تنسب الفتح لفاتح محدد أو لإسم بعينه, فالحملات على المغرب الاقصى كانت متعددة و منها من قادها عرب و منها من قادها أمازيغ مسلمون.

خلال كل حملة من حملات الغزو الاسلامي على منطقة شمال أفريقيا, ابتداءا من غرب النيل, كان الأمازيغ ينزحون غربا مع كل حملة للنأي ببناتهم و نسـائهم و أعراضـهم و أرزاقهم, تجنبا للوقوع سبايا و جواري في أيادي جنود المسلمين.. و استمر الحال كذالك على امتداد ما يقرب القرن من الزمن. إلى أن صارت جبال الأوراس بالجزائر و جبال الأطلس بالمغرب يعرفان أكبر تمركز و تكثل للأمازيغ بالشـمال الإفريقي. فبعد سـقوط الاوراس تحت وطئة الحملات المتتالية, شـكلت جبال الأطلس الأكثر مناعة و وعورة الملاذ الأخير لكل الامازيغ بمن فيهم الذين نزحوا من الشرق للاستعصام بها. و هذا ما يفسر استغراق فتح المغرب الاقصى حوالي القرن بعد حملات كثيرة و مضنية لم تنتهي بفتحه إلا على يد أبناء الأمازيغ أنفسهم ممن أسلموا و نشؤوا في ظل الاسلام.

الأمازيغ بالأساس لم يكونوا دائما سكان جبال و مرتفعات... و بسبب الغزوات الاسلامية يكاد الان لا يوجد أمازيغ في المناطق و السـهول الشـرقية للشـمال الافريقي, بينما تتضـاعف نسبتهم أكثر و أكثر كلما اتجهت غربا و كلما اتجهت نحو المرتفعات.

تأسيس مدينة القيروان

لم يكن عقبة بن نافع قائدا عسكريًّا محضا فقط، بل كان صاحب عقلية مبدعة وفكر استراتيجي فذ وهو يصح أن يطلق عليه خبير بشئون المغرب والشمال الإفريقي، ومن خلال حملاته الجهادية المستمرة على الشمال الإفريقي، أدرك أهمية بناء مدينة إسلامية في هذه البقاع وذلك لعدة أسباب من أهمها:

1- تثبيت أقدام المسلمين والدعوة الإسلامية هناك وذلك أن عقبة قد لاحظ أمرا هامًّا أن أهل الشمال الإفريقي إذا جاءهم المسلمون يظهرون الإسلام وإذا انصرفوا عنهم رجعوا مرة أخرى إلى الكفر، فكان بناء مدينة إسلامية خير علاج لهذه الظاهرة الناجمة عن غياب قاعدة إسلامية ثابتة للإسلام لنشر الهدى والنور وسط ظلمات البربر.

2-ضرورة تكوين قاعدة حربية ثابتة في مواجهة التهديدات الرومية المتوقعة بعد فتح الشمال الإفريقي.

3- أن تكون هذه المدينة دار عزة ومنعة للمسلمين الفاتحين، ذلك لأنهم تفرقوا في البلاد كحاميات على المدن المفتوحة، وهذا التفرق قد يورث الضعف والوهن مع مرور الوقت خاصة لو دهم عدو كبير العدد هذه البلاد.

لهذه الأسباب وغيرها قرر عقبة بن نافع بناء مدينة القيروان في القرن الشمالي لإفريقية في مكان تتوافر فيه شروط الأمن الدعوي والحركي للمسلمين بحيث تكون دار عزة ومنعة وقاعدة حربية أمامية في القتال، ومنارة دعوية علمية لنشر الإسلام، وانطبقت كل الشروط المطلوب توافرها في منطقة أحراش مليئة بالوحوش والحيات، فقال له رجاله: "إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض"، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فجمعهم

وقال: "إني داعٍ فأمنوا"، وبالفعل دعا الله طويلاً والصحابة والناس يأمنون، ثم قال عقبة مخاطبا سكان الوادي: "أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ ، فارتحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه."

فحدثت بعدها كرامة هائلة حيث خرجت السباع من الأحراش تحمل أشبالها والذئب يحمل جروه ، والحيات تحمل أولادها، في مشهد لا يرى مثله في التاريخ، فنادى عقبة في الناس: "كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا", وهكذا يصل الإيمان والثقة بالله ﷻ لهذا المستوى الفائق من اليقين بنصرة الله ﷻ وتأييده ومدده، فهذا هو البطل المجاهد يصل به الإيمان والكرامة لئن يتكلم مع الحيوانات البهائم التي لا تعقل ولا تفهم، فيطيعونه ويسمعون أوامره، وهكذا يصبح الكون كله ومن فيه مسخرا لخدمة المجاهدين وغايتهم السامية.

استمر بناء مدينة القيروان قرابة الخمس سنوات، حتى أصبحت القيروان درة المغرب، وشيد عقبة بها جامعا كبيرا أصبح منارة العلم وقبلة طلاب العلم والشريعة من كل مكان، وملتقى للدعاة والعلماء والمجاهدين، وأصبح جامع القيروان أول جامعة إسلامية على مستوى العالم, وذلك قبل الأزهر بعدة قرون.

في سنة 50هـ بدأت إفريقية الإسلامية عهدا جديدا مع عقبة بن نافع، المتمرس بشئون إفريقية منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على إفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم فأسس مدينة القيروان وبنى جامعها، وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده بقوله: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر.

فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها؛ ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون، ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم، وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء، وهربوا حتى إن الوحوش لتحمل أولادها.

وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا، ثلاث مرات فما رأينا حجرا ولا شجرا إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي: ثم قال للناس: انزلوا بسم الله، وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة، وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار وأمر عقبة ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة 55هـ وسكنها الناس،

وكان في الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتغير وتنهب ودخل كثيرا من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها.

وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائما إلى جوار بعضهما، ويكونان دائما في قلب المدينة التي يخطتها المسلمون ويرتكزان في وسطها، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان، الذي سيسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغا حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة، ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمرارا للشارع الرئيسي في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي إفريقية إلى القيروان، وسكنوا حولها وكان الكثير منهم دخل في الإسلام، وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم وهكذا نشاهد فيما بين سنتي 50 و55هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي.

الخصائص المتوفرة في موضع القيروان :

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية في قرار عقبة في اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتي:

- بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط إي بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البري الذي يربط بين الفسطاط) بمصر (وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة، وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.
- موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع في أن يكون الموضع قريبا من السبخة: فإن أكثر دوابكم الإبل تكون أبلكم على بابها في مراعيها... وكذلك في الكلمات التي عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم في الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب أبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر.

- جـ- بأنه يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التي كان فيها موضع القيروان عبارة غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجها لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن، فإنه كان في بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التي تكفل للمجاهدين المسلمين موردا غذائيًّا مهمًّا.

- د- صحيح أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثّلة بالموارد المائية، كما هي الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين، الأول منهما الأمطار حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيها مياه وادي السراويل في قبلة المدينة؛ لكنه كان مالحا؛ لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان قائلاً: وشربهم من ماء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها (المؤجل).. ولهم واد يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجونه، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجيًّا إلى حد ما.

القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية

لم تبدأ الحياة العلمية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة 50هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمته العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق ومما رشح القيروان في هذه المكانة ما يلي:

أ- إن إنشاء مدينة القيروان يعني أن إفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءا لا يتجزأ من العالم الإسلامي الكبير، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقى مسئولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها.

ب- لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابيًّا، وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها، ولا شك، نشر اللغة العربية، وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان؛ وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غيابا طويلاً عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابيًّا، وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة مما دعا عقبة أن يوصي أولاده من ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن.

ج- لقد استقطبت القيروان أعدادا هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة. ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب،

فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكرا في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام، ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية إفريقية تألف كسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجا ودعم حسان بن النعمان – فيما بعد جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر حيث خصص ثلاثة عشر فقيها من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نصير هذه المهمة حيث: أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقّهوهم في الدّين، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيها لتعليم أهله.

د– كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية.

ومن هنا كان لا بدَّ من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جدًّا، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين أولاهما سنة 60هـ أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة 78هـ.

هـ- إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمر بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق.

و- لـ قد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة ولذلك أمها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهمًّا في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان.

ز- ومما أسهم في شراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيرا من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق، التي استمر مجيئها إلى بعض منتصف القرن الثاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب.

ح- كما أن القيروان اكتسبت نوعا من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية في إفريقية والمغرب حتى وصفها أبو إسحاق الجبنياني قوله: القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها ولا قاتل ولا قتل على أحياء السنة إلا أئمتها،

وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي من ذلك ما وصفها به ما قد يشي بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها،

فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام، وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الإفريقية وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم،

وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب، لقد قامت القيروان بدور كبير في فتح شمال إفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام في المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية.

استمرار فتوحات بلاد المغرب

عهد عقبة بن نافع

سقطت مدينة الاسكندرية بأيدي المسلمين العرب سنة 642 م بقيادة عمرو بن العاص . وكانت الاسكندرية آنذاك ثاني أكبر مدن الدولة البيزنطية . وسار ابن العاص في السنة التالية بجيشه غرباً متجهاً نحو مدينة طرابلس الغرب التي سقطت بعد حصار دام حوالى الشهر . وكانت الجيوش العربية قد فتحت زويلة وبرقة بقيادة عقبة بن نافع . وقد أغرت هذه الانتصارات ابن العاص ليكمل طريقه لفتح " أفريقية " ، أي بلاد المغرب قاطبة .غير أن الخليفة عمر بن الخطاب منعه من ذلك .

ومـع مجـيء الخليفـة عثمـان بـن عفـان حـدث تبـديل فـي سياسـة الدولـة الاسـلامية تجـاه مصـر وافريقيـة . فالخليفـة الجديـد ، بخبرتـه الطويلـة فـي شـؤون التجـارة الدوليـة ، فهـم أهميـة وقيمـة ومـردود هـذا التوسـع علـى طـول الشـواطـيء الجنوبيـة مـن البحـر الابـيض المتوسط وبالتالي اتخذ قراراً جريئاً بفتح المغرب بأكمله.

تجمـع جـيش العـرب المسـلمين فـي مصـر وسـار بقيـادة عبـد الله بـن ابـي سـراح باتجـاه برقـة بليبيـا حيـث انضـم اليـه عقبـة بـن نـافع بمـن كـان معـه مـن المسـلمين وبمـن انضـم الـيهم مـن البربـر الـذين اعتنقـوا الاسـلام . وفـي سـنة 27 هـ (647 – 648 م) سـار حشـد كبيـر باتجـاه تـونس الحاليـة . ولمـا وصـل الجـيش العربـي الـى قـابس وجـدها محصـنة فتجاوزهـا ودخـل " أفريقيـة " وجـرت معركـة فاصـلة مـع البيـزنطيين بقيـادة غريغـوريس او جرجيـر كمـا تـدعوه المصـادر الاسـلامية حـول مدينـة سـبيطلة التـي سـقطت بسهولة بعد مقتل جرجير المذكور. واتجه الجيش بعدها الى مدينة قفصة .

لكـن الهجـوم العربـي الاسـلامي توقـف عـن الزحـف غربـاً بعـد ان تخلـى القائـد المصري ابن ابي سراح عن القتال وعاد بجنوده الى مصر مكتفياً بالغنائم التي جمعها .

مـع قيام دولـة بنـي أميـة فـي دمشـق قـرر معاويـة إكمـال الفتوحـات الافريقيـة فعـين ابـن حـديج علـى "ولايـة المغـرب" بعـد ان ربطهـا بالخلافـة مباشـرة . ولمـا تبـين لمعاويـة ضـعف ابـن حـديج أقالـه وعـين مكانـه عقبـة بـن نـافع ، رائـد الفتوحـات الاسـلامية فـي شـمال افريقيـا . وكـان عقبـة هـذا رجـلاً شـجاعاً ومحاربـاً شـديد البـأس قـوي الايمـان بالاسلام كبير الرغبة في نشره ولو بالقوة.

صـمم عقبـة بـن نـافع علـى بنـاء مقـر ثابـت ليقنـع أهـل الـبلاد ان وجـود المسـلمين هـو أمـر دائـم ولـيفهم البيـزنطيين ان لا تراجـع عـن فـتح الشـمال الافريقـي . ولمـا كـان البيزنطيـون يقيمـون علـى طـول السـواحل فقـد قـرر ابـن نـافع ان يجعـل مقـره مدينـة وان تقـوم هـذه المدينـة فـي الـداخل بعيـدة عـن السـاحل ، فبنـى القيـروان . وكـان لـه فـي ذلـك هدف آخر هو مراقبة البربر ورصد تحركاتهم.

تحولـت القيـروان الـى مدينـة كبيـرة وقاعـدة حربيـة والـى مركـز دينـي بعـد ان بنـى فيهـا ابـن نـافع المسـاكن والمسـاجد ، واتخـذت لنفسـها بـدءاً مـن سـنة 55 هـ (674 م) مكانـة بـارزة بـين مـدن دولـة الاسـلام وأصـبحت مقـراً للـولاة والعمـال والجيـوش التـي كانـت تخـرج منهـا وتعـود اليهـا بالغنـائم. ومـن مسـاجدها ومدارسـها تخـرج العلمـاء والرسـل والفقهـاء ليـدعموا وجـود الاسـلام فـي تلـك الاصـقاع . وبصـورة مدهشـة عمـرت بالـدور وبالمنشآت العامة وأقبل كثيرون ممن أسلموا من البربر على الاقامة فيها ،

يختلطـون بـالعرب ويتعايشـون ويتـآلفون معهـم . غيـر أن هـذا النجـاح البـاهر أغـرى عقبـة بـن نـافع باتبـاع سياسـة مسـتقلة عـن مركـز الخلافـة فـي دمشـق فـأمر الخليفـة بابعـاده وعـين مكانــه مسـلمة بـن مخلـد واليـا علـى مصـر وأفريقيـة . وقيـل إن مـن بـين الاسـباب التــي حــدت بمعاويــة لاقصــاء ابــن نــافع كــون السياســة التــي اتبعهــا هــذا الاخيــر كانــت متشــددة لــم تتوافــق مــع طبيعــة الخليفــة فــي دمشــق الــذي عــرف بمرونتــه ودهائــه ودبلوماسيته.

أحـل مسـلمة بـن مخلـد مكانـه فـي ولايـة مصـر وأفريقيـة الـي ابـي المهـاجر دينـار الــذي كــان ، مــع حماســه للغــزو والفــتح ، صــاحب نظريــة فــي التعامــل مــع السـكان المحليـين أعطـت فـي المـدى الطويـل نتـائج مذهلـة . فقـد آمـن بـأن وجـود دولـة الاسـلام فـي تلـك الاصـقاع النائيـة سـيظل ضـعيفاً مـا لـم يرتكـز الـى قواعـد متينـة تقـوم علـى ولاء النـاس وحبهم .

فسعى الى التقرب من البربر وتمكن من إسلام " كسيلة " زعيم قبائل البربر البرانس الذي كان نصرانياً وحليفاً للبيزنطيين ، فساعده هذا الزعيم في التوسع غرباً حتى مدينة تلمسان في المغرب الاوسط.

توفي معاوية بن أبي سفيان سنة 60 هـ (680 م) وآلت الخلافة الى ابنه يزيد الذي أعاد عقبة بن نافع مجدداً الى ولاية أفريقية" (62 هـ / 682 م) وكلّفه متابعة التوسع والفتح . فانطلق عقبة بسرعة الى مدينة القيروان وتسلم السلطة من أبي المهاجر دينار وأنزل فيها حامية من جنوده . واعتمد عقبة في تعامله مع البربر ، على خلاف سلفه ، سياسة القوة والعنف وتجاهل زعيمهم كسيلة واندفع في حملة سريعة غلبت عليها روح المغامرة والحماس فحاصر مدينة بغاية وافتتحها وقتل عدداً كبيراً من الروم فيها . غير ان هؤلاء عادوا الى المدينة وتحصنوا فيها

فأهملها عقبة وتوجه الى مدينة ممس حيث حارب أهلها من الروم من دون ان يحتل المدينة . ومن هناك توجه الى مدينة تاهرت حيث تغلب على قبائل البربر التي كانت قد تجمعت فيها . وهكذا تمكن القائد العربي من احتلال أكثر مناطق المغرب الاوسط من دون ان يحتل مدناً بصورة دائمة

سار عقبة بن نافع بعد انتصاراته في المغرب الاوسط باتجاه المغرب الاقصى حتى وصل الى مدينة طنجة التي تسلمها سلماً من صاحبها يوليان ، ثم انتقل بجيشه الى حيث تقوم مدينة فاس اليوم وهزم البربر ووصل حتى سواحل المحيط الاطلسي ، ساحقاً كل مقاومة واجهته من البيزنطيين والبربر . بعدها اتجه نحو جبال اوراس سالكاً الطريق التي تقوده الى مدينة تهوده التي كانت تشهد آنذاك تجمعاً كبيراً لمحاربي البربر والبيزنطيين ، وفيها أصيب بهزيمة نكراء وقتل هو ومساعده ابو المهاجر دينار

.

أحدثت هذه الهزيمة (64 هـ / 683 م) دوياً كبيراً بين المسلمين ، خصوصاً وان بطل الفتوحات الافريقية عقبة بن نافع استشهد فيها . وبدا وكأن الوضع بكامله قد بدأ يميل الى غير صالح المسلمين وظهرت دلائل تشتت داخل الجيوش الاسلامية بعد أن دخل كسيلة مدينة القيروان ظافراً باسطاً سلطانه على ولاية أفريقية كلها معطياً الامان لكل من طلب من المسلمين.

مع وصول عبد الملك بن مروان الى سدة الخلافة في دمشق عادت الرغبة شديدة في الشام لاستئناف الفتوح ، فوجه الخليفة أمراً الى القائد زهير بن قيس البلوي المتمركز مع جنوده في برقة باستعادة القيروان . وفي سنة 69 هـ (688 م) سار هذا القائد الى القيروان . ومع وصول اخبار الحملة الى كسيلة قرر إخلاء المدينة والتراجع مع جيشه الكبير الى مكان قريب من مدينة ممس ، وهو مكان يقع على طريق المسلمين الى مصادر الماء ليحرج وضعهم ، من جهة ،

ولقرب المكان من الجبال والصحراء التي يمكن ان يلجأ اليها الخاسر ، من جهة اخرى . مالت كفة القتال بسرعة الى صالح القائد الاموي وهزم جيش كسيلة وقتل هذا الاخير، ولاحق الجيش الاموي فلول جنود كسيلة حتى نهر ملوية عند حدود المغرب الاقصى.

حقق هذا النصر للأمويين وللمسلمين عامة مبتغاهم في فتح المغرب وزالت كل مقاومة بيزنطية او بربرية ، بخاصة بربر البرانس . لكن هذا الانتصار شابته نكسة اذ هاجم البيزنطيون جيش زهير بن قيس البلوي العائد الى برقة بمراكب كثيرة وقوة عظيمة وتمكنوا من ان يقتلوا البلوي وان يهزموا جيشه ، فتوقفت الفتوح إثر الهزيمة لسنوات جمع خلالها الخليفة عبد الملك جيشاً جديداً في مصر واختار له قائداً جديداً هو حسان بن النعمان الغساني . وكان هذا الرجل قائداً بارعاً وسياسياً منفتحاً فقرر مهادنة البربر واستمالتهم وتجيشهم للانقلاب على البيزنطيين . ومن الوجهة العسكرية قرر فتح المناطق الداخلية وترك البيزنطيين في مناطقهم الساحلية

إتخذ الغساني من القيروان قاعدة لجيشه ومنطلقاً لغزواته وتقرب من البربر البرانس وصالحهم وضم بعضهم الى جيشه فزحفوا معه الى مدينة قرطاجة التي اخلاها الروم بعد قتال قصير وانتقل بعضهم الى جزيرة صقلية والبعض الآخر الى اسبانيا . ثم توجه الى بنزرت وصفطوره (في تونس الحالية) وطرد البيزنطيين منهما . وتحقق بذلك للمسلمين ، ولأول مرة ، السيطرة على مناطق ساحلية ، خصوصاً ان الأمويين كانوا قد بدأوا بانشاء اسطول بحري أرسل بعضه الى المرافىء الافريقية الشمالية

تخللت هذه الانتصارات نكسة جديدة جاءت على يد بربر البتر في جبال الاوراس ، وكانت تقودهم امراة قوية تدعى الكاهنة . وقد تمكن هؤلاء من انزال هزيمة كبيرة بالجيش الاسلامي أدت الى تراجعه الى برقة حيث استقر حوالى خمس سنوات استبدت خلالها الكاهنة بالمناطق الافريقية الشمالية الداخلية .

وكـان مـا فعلتـه بالنـاس وممتلكـاتهم مريعـاً ممـا أفقـدها الكثيـرين مـن الانصـار واسـتعدى عليهـا السـكان المسـيحيين ، وخاصـة بربـر البـرانس . ولمـا أعـادت القـوات الاسـلامية هجومهـا لاقـت ترحيبـاً ومسـاندة مـن السـكان فانتهـت المعـارك بـانهزام الكاهنـة وقطـع رأسـها فـوق بئـر لا يـزال يعـرف ببئـر الكاهنـة ، وقـد فـتح هـذا النصـر البـاب امـام تركيـز اقـدام دولـة الامـويين فـي المغـربين الادنـى والاقصـى وبقـي امـامهم إخضـاع بـلاد المغـرب الاقصـى . فقـام بهـذه المهمـة موسـى بـن نصـير . وكانـت العمليـة سـهلت بعـد ان استسـلمت القبائـل البربريـة لضـعفها بعـد مـا اصـابها واصـاب سـائر قبائـل البربـر فـي المغرب الاوسط من قتل وارهاب ، بخاصة قبائل هواره وزنانة وكتامة

ولـي طـارق بـن زيـاد علـى طنجـة واحوازهـا بعـد ان هـدأت حـروب العـرب المسـلمين مـع البربـر والبيـزنطيين ودخلـت اعـداد كبيـرة مـن البربـر فـي الاسـلام . وبـدخولهم هـذا ومسـاندتهم نجـح طـارق مـن تركيـز دعـائم دولـة الاسـلام فـي كـل بلـدان المغـرب الاقصـى وصولاً الى شواطىء المحيط وتخوم الصحراء الكبرى

ولـم يبـق خـارج الدولـة سـوى مدينـة سبتة التـي صـمدت بوجـه الفـتح بعنـاد . ومـن المغـرب الكبيـر تطلعـت عينـا طـارق بـن زيـاد شمالاً نحـو شـبه جزيـر أيبيريـا وبـدأ التخطـيط لفتحها.

استشهاد البطل عقبة بن نافع

حقق عقبة غايته من حركة الفتح الإسلامي بالشمال الإفريقي، فلقد أخضع قبائل البربر وأوقع بها بأسا شديدا، حتى وصل إلى أقصى بلاد المغرب واقتحم المحيط بفرسه، وبعدها قرر عقبة العودة إلى القيروان، فلما وصل إلى طنجة أذن لمن معه من الصحابة أن يتفرقوا ويقدموا القيروان أفواجا ثقة منه بما نال من عدوه، ومال عقبة مع ثلاثمائة من أصحابه إلى مدينة تهوذة، فلما رآه الروم في قلة من أصحابه طمعوا فيه، وأغلقوا باب الصحن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام, وعندها أظهر كسيلة مكنون صدره الذي كان منطويا على الكفر والغدر والحسد، واستغل قلة جند عقبة واتفق مع الروم على الغدر بعقبة,

وأرسل إلى إخوانه البربر الوثنيين, وجمع جموعا كثيرة للهجوم على عقبة ومن معه.كان أبو المهاجر في ركب عقبة ولكن عقبة قد غضب منه فقيده، فلما رأى أبو مهاجر هجوم كسيلة ومن معه، أنشد أبيات أبي محجن الثقفي المشهورة:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا *** وأترك مشدوداً علي وثاقيا إذا قمت عناني الحديد فأغلقت *** مصارع دوني قد تصم المناديا

ففك عقبة وثاقه، وقال له: "الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أغتنم الشهادة"، فقال أبو المهاجر: "وأنا أيضا أريد الشهادة."

وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم واقتتلوا مع البربر حتى استشهد عقبة وكل من معه في أرض الزاب بتهوذة وذلك سنة 63 هجرية.

كان عقبة بن نافع ﷺ مثالاً في العبادة والأخلاق والورع والشجاعة والحزم والعقلية العسكرية الاستراتيجية الفذة، والقدرة الفائقة على القيادة بورع وإيمان وتقوى وتوكل تام على الله فأحبه رجاله وأحبه أمراء المؤمنين، وكان مستجاب الدعوة، ميمون النقيبة، مظفر الراية، فلم يهزم في معركة قط، طبق في حروبه أحدث الأساليب العسكرية والجديدة في تكتيكات القتال مثل مبدأ المباغتة وتحشيد القوات وإقامة الحاميات وتأمين خطوط المواصلات واستخدام سلاح الاستطلاع.

ونستطيع أن نقول بمنتهى الحيادية أن البطل عقبة بن نافع قد حقق أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حد الروعة والكمال، وأنجز في وقت قليل ما لا يصدقه عقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة، وترك باستشهاده أثرا كبيرا في نفوس البربر وأصبح من يومها يلقّب بـ "سيدي عقبة."

فهرس